

أبعاد العالمية في الإسلام

أبعاد العالمية في الإسلام

السيد مجتبى جواد الرفيعي

قم - إيران

بسم الله الرحمن الرحيم

مدلول الاخوة الإسلامية

تقوم الاخوة الإسلامية على مجموعة ركائز:

الأولى: أنه ليس المراد من الاخوة مجرد الانتماء إلى أصل واحد برابطة دموية، بل المقصود هو الرابطة النفسية التي تورث الشعور العميق الديني بالاعتبار الإنساني للآخرين واعتبار وجودهم على كافة المستويات من إنسانية وحقوقية ودينية. وهي بذلك رابطة إنسانية ومصدر الالتزام والتكميل ومنبع للأخلاق والحقوق: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (1).

ولقد جعلت هذه الأخوة العرب أمة جديدة وامتدت يآفاق
الثانية: وهكذا فقد حلّت الاخوة الدينية محل العنصرية والجنسية اللّاتين كانتا في العصر الجاهلي

¹ - سورة الحجرات، الآية: ١٠.

-(250)-

الإسلام إلى أقصى مدى: صارت آفاقه العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها.

وأُوجِدَتْ هذِهُ الْأَخْوَةُ أَيْضًاً عِنْدَ الْفَرْدِ الْمُسْلِمِ الْإِحْسَاسِ بِالْجَمَاعَةِ إِلَسْلَامِيَّةِ وَمَصَالِحِهَا وَخَيْرِهَا وَعِنْدَ الْجَمَاعَةِ الْإِحْسَاسِ بِالْفَرْدِ وَخَيْرِهِ وَمَصَالِحِهِ، وَنَتَجَ عَنْ هَذَا الْإِحْسَاسِ الْمُتَبَدِّلِ تَضَانُ رُوحِيِّ وَتَضَانُ مَا دِيْ هَدِفَهُمَا تَمْتِينٌ هَذِهِ الْأَخْوَةِ وَبِقَوْهَا.

وَرَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِهَذِهِ الْأَخْوَةِ مَا يَقْوِيهَا وَيَبْقِيَهَا وَيَغْذِيَهَا «مُثُلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَعَاوُفِهِمْ كَمُثُلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُوٌّ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمْى».

وتقوم أصول هذه الاخوة على التقوى «الحقيقة القلبية» التي تعني إنسان القضية الذي يعي ذاته وعقيدته ومحتممه.

فالأخوة الإسلامية ليست انفعالاً مبهاً أو رباطة عصبية أو دعاية سياسية أو ديماغوجية إقليمية أو خيال شاعر أو حلم فيلسوف ولكنها روح الحياة الإسلامية في شمولها الإنساني ورسالتها الإصلاحية وصياغتها السوية للمجتمع البشري مبرأة من رياح التعصب وظلم العنصرية وحفا فها.

وأن من أهم مظاهر الاخوة الإسلامية النص على المساواة الإنسانية أي وحدة المجتمع الإنساني في الأصل والمنشأ والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات والتكليف والمسؤولية بشروطها وتفاصيلها الحقوقية الواسعة والمساوية الاجتماعية من يحث الاعتبار الإنساني بغض النظر عن المهن والطبقات والأشكال والألوان:

١ - فلقد ساوى الإسلام بني الأفراد والجماعات والأمم والشعوب بما لها من حقوق وما عليها من واجبات مساواة إنسانية عامة بين جميع الخلق ورفع لواء العدالة وسار بها في طريق الواقع العملي والتطبيق

-(251)-

الفعلي.

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوْمَ امْرِئَنَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ إِلَوَالِدَيْنَ وَالْأَقْرَبَيْنَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَبَعَّ عُوْنَوَى الْهَوَى أَن تَعْدِلُوْنَ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوْنَ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيرًا ﴾(١).

وقال عزّ اسمه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾(٢).

عدلاً مطلقاً مبراً من التأثير بالهوى أو العوامل الشخصية كالحب والبغض والقرابة والغنى والفقير والقلة والكثرة، بل مبراً من العصبية الدينية أيضاً.

الثالثة: وقد شرع الإسلام العدالة في القضاء والحكم وألزم القاضي أن يتحرجي الصدق والعدل وان يسوى بين الخصميين من كل وجه وان لا يخضع للمؤثرات الشخصية وان لا يقبل هدية وان لا يقضى وهو غضبان أو في حالة نفسية تحول بينه وبين ضم القضية ومعرفة حكمها: قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَحْكُمُوْا رُؤُدُّوْا أَلَّا يَأْهُلُهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوْا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمٌ مَا يَعْظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾(٣).

الرابعة: وأخيراً نص الدين الإسلامي على المساواة والعدالة الاجتماعية فكرّم العمل والمهنة والسعى والكسب وطلب العلم والفضائل الإنسانية وفتح أمامه المستقبل والحاضر السعيد على مصراعيه: ﴿ فَلَمْ يَعْبُدُوا رَبَّهُمْ هَذَا الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾(٤).

2 - سورة النحل: الآية 90.

3 - سورة النساء: الآية 58.

3 - سورة قريش: الآية 3 و 4.

-(252)-

الإيجابية في تعاليم الإسلام

لكي نعرف هدف الرسالة الإسلامية في حياة الإنسان علينا أن نفهم معنى الإيجابية في تعاليم الإسلام: فالإنسان الذي صنعه الإسلام للحياة هو مثلاً للتقدم ونموذجًا لفداء الإرادة الإنسانية وهو ذلك الفرد الإيجابي الذي يربط وجوده بمجتمعه ولا تعزله عنه أناانية أو ذاتية خاصة تحجب إمكاناته أو تبعده عن أداء ما يمكن أن يوكل إليه القيام به في خدمة مجتمع يهدف الإسلام دائمًا إلى رتقيه وتقديمه استجابة لسنة التطور وإيماناً بأن طريق الحياة منطلق إلى كل جديد من أجل خير الإنسانية ورعايتها وإشاعة السلام واستقراره (1).

وإيجابية إنسان الإسلام حين لا يعزل نفسه عن واقع الحياة والانخراط فيها لا تعرف الكينونة المستقلة ولا الانطلاق الفردي الطائش وأيضاً ولا الموقف الجامد الذي يعبر عن صلف وغباء، أو الموقف الهزيل الذي يفصح عن نكوص الفرد وتهربه من تحمل عبء دور يوكل إليه تجاه ما يجري حوله وإنّما إنسان الإسلام فرد في مجموع كبير هو الحياة كلها. ولا إيمان لإنسان الإسلام بما يقدم من جهد أو طاقة إلا ان يكون في خير هذا المجموع وهذا الأساس السلوكي في عقيدة المسلم و التربية الإسلام لأبنائه مستمد أصلًا من عقيدته الدينية بكل مكوناتها وشمولها حين عرف المسلم ان كل الأفعال إنّما تتجه إلى الله واحد يحاسب على الخير والشر وحين آمن المسلم ان الإسلام يربط أفراده جميعاً في وحدة عالمية بعقيدة واحدة تتجه ومكوناتها إلى فاعلها الأول ومبدعها الخلاق

وحده: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَرْبَعَةٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمُّ يُنَذَّبُهُمْ بِمَا عَمَلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (1).

وإيجابية المسلم حين وكل إليه أمر العمل والانطلاق به ما وسعته طاقته يختلف عن غيره من الأفراد فهو بتصوره الإسلامي يجد في نتاج عمله ثمرتين يباشر إداحتها بحسه وجوارحه حين يكون في واقع مادي وبروحه وقلبه حين ينطاط به معنى من الأمور التعبدية، وثمرة مختزنة في أعماق نفسه يلقاها عند ربه ليحيا بها الحياة الثانية التي يؤمن بها وتقوم عليها معاني جمة في عقيدته: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمَلَ صَالِحًا فَلَهُ حَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَذَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (2).

يؤكد الإسلام لل المسلمين موقف الإيجابية المبدعة والخلافة حين يتحرر صاحبها من التقليد ويعمل عامل الثقة والإيمان عمله بما يكفل أن يكون إنسان الإسلام هو تلك الإرادة التي تنطلق تعبير عما هي معدة له أصلًا وهو ربط علاقة الإنسان بربه ﴿سَذَرْ يَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَرْجَأُ الْحَقِّ أَوْلَامٌ يَكُفِرُ بِرَبِّكَ أَرْجَأُهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (3).

والعمل الصالح كمظهر إيجابي في حياة المسلم هو مبتغاه الوحيد الذي لا يعرف له مبتغي سواه وهو كل ما يرجوه فيما يقدم من جهد أو تضحية ومن أثر ذلك أن المسلم مهما عمل فيه التواكل وهو ليس من أساسيات الإسلام فانه ما ان ينخرط في سلك الجماعة فان أساسا عميقا من مكوناته يدفعه دفعاً إلى إنكار الذات والتفاني في أداء ما يعمل. ذلك ان أعماق المسلم مستعدة دائمًا لأن تعيش

3 - سورة فصلت: الآية 53.

-(254)-

كل تقدم بل وتقوده وتبعه فيه كل عوامل الخلق والإبداع من أجل غد يحفظ للإنسانية كل مظاهر التكريم الإنساني والانطلاق نحو خير الإنسان وسعادته.

العالمية في الإسلام

قبل ان نلحظ مغزى ومصاديق العالمية في رسالة الإسلام نتبين ملامح هذه العالمية: لقد سلخ الإسلام حتى اليوم أربعة عشر قرنا من التاريخ، وليس ثمة أحد يستطيع ان ينكر ان التعاليم الإسلامية قد نجحت في تأسيس مجتمع إسلامي بحث.

وإذا كان الإسلام قد أثبت جدارته وصلاحيته كعقيدة دينية تزايد معتنقوها - على نحو لم يسبق له نظير - حتى اندمج في عقدها معظم سكان العالم في ذلك الوقت، فإنه نجح أيضاً كنظام اجتماعي له قوانينه الصالحة ومبادئه الأخلاقية المثالبة وبفضل هذه القوانين والمبادئ تحقق للإسلام هذا النجاح.

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام قد قامت أساساً على مبدأ لا إله إلا الله ينـهـ فإنـهـ من الأسف ان ينسب انتشار الإسلام إلى عامل ما غير ذي صلة بعامل الإقناع.

وإنـماـ كانت عملية الإقناع نفسها مستحيلة إذا لم تتوفر للداعية الإسلامي كافة الظروف والمصانات التي تكفل له القيام بمهمته في حرية و بلا قيد. وفي الحقيقة ان الإسلام ليس فقط كغيره مما سبقه من الأديان، ولكنه شيء أوسع وأشمل.

ولأول مرة أيضاً أعطى اـلـإـنـسـانـ صورة تامة ونهائية عن الطريقة المثلثة التي ينبغي ان يكون عليها سلوكه على الأرض، فجاءت رسالة اـلـإـسـلـامـ تامة و شاملة فهي من ناحية مفتوحة على عظمة اـلـتـوحـدـ التي لا تحد وهي من ناحية

أخرى ذات صلة باحتياجات وضرورات الإنسانية المتشعبة وكان الإسلام وما زال ديناً متميزاً عما سواه من الأديان. ومن الخطير أن ننظر إلى ما سدّه الإسلام من قوانين تنظم حياة البشر من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية دون أن نراعي الناحية الأخلاقية فيه، وهنا أيضاً لابد وأن نضع في اعتبارنا حقيقة وجود الله وما أعده لنا من ثواب وعقاب لا على كل ما نعمله فحسب بل أيضاً على ما توسوس لنا به أنفسنا وما ته jes به ضمائernا. أذن فالإسلام في حقيقته ليس إلا إيماناً خاصاً حياً متجدداً مع كل لحظة من لحظات الزمن في قلب كل فرد مسلم.

ونعود فنقول أربعة عشر قرناً من الزمان كانت فيها التعاليم الإسلامية هي الدافع الأقوى في ديننا ميكية التطور الحضاري الإنساني ما دامت هذه التعاليم محل اعتبار من الإنسان.

كما ظلت العقيدة الإسلامية من حيث التعريف بذات الله وصفات العظمة والجلال والكمال فيه تريح روح الإنسان وتملاً شعوره بالإيمان الواثق المطمئن.

وإذا كان الإنسان قد طلل طوال تاريخه في هذا الوجود قلقاً شقياً يبحث عن راحة الضمير في الإيمان، وعن أمان النفس في العدل والحرية، فإن الإسلام قد أتاح للإنسان حلاً لمشاكله وأتاح له على نطاق واسع كل ما كان ينشده ويبحث عنه حيث أعطاه ثلاثة أمور جوهرية: أولها: تفسير روحي لحقيقة العالم،

وثانياً: تحرير روحي لذات الفرد. وثالثها: نظام من المبادئ العالمية توجه تطور المجتمع الإنساني على صعيد روحي وما دyi معاً.

وأيضاً فقد كان نجاح الإسلام شاملاً ومثيراً معاً، وحيث لم يكن نجاحاً قومياً ولا عنصرياً وإنما كان نجاح الإسلام الخالق المسؤول. والمجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية لم يبنيا على الجهود العربية وحدها – وربما كان المجهود

العربي في عملية البناء هذه ضئيلاً لا يذكر – وإنما ساهمت فيها بالقسط الأوفر عناصر هلينية وعناصر من ثقافات الشرق الأدنى القديم السامية وأخرى من إيران الساسانية وأخرى من الهند وكذلك ساهمت فيه

عناصر من مصر وبدو الصحراء الكبرى والبربر والأندلس، وقد صهر كل ذلك في بوتقة واحدة وخرج سبيكة إسلامية جديدة متميزة عن أصولها القديمة تميزاً كلياً وكان الإسلام هو الوقود الذي اتم هذه العملية كما كان الضمان الوحيد لصيانة هذا الشيء الجديد المدهش والمحافظة عليه، كما أعطى الشكل الإسلامي لكل ناحية من نواحي الحياة مهما كان الشيء تنطوي عليه. وقد كان هذا الطابع الإسلامي هو الذي أعطى المجتمع الجديد صلابته وحيويته.

وكذلك فإن التجربة الإسلامية قد برهنت على أن هذا الدين لم يلب الحاجة البشرية فحسب، انه فتح أمام الإنسان أيضاً الآفاق التي لا حدود لها، ورسم له الطريق واضحاً لكي يستغل كل ما ولهه الله من عقل وحواس وإمكانيات في اقتحام هذه الآفاق. والقرآن الكريم كثيراً ما يحث المسلمين لأن ينتفعوا بما انعم الله به عليهم وأباح لهم الطيبات وأمرهم بالسعى وعدم القعود ورسم خطط هذا السعي حركة دائمة إلى الأمام تجدد نحو الرقي وتقدم في تيار التطور فلا وقوف ولا انتكاس وهذا المسلك السليم الذي وضعه القرآن لم يكن يعتبر إنّ "بذل الجهود في سبيل التبشير بالدعوة الإسلامية واكتساب الأعضاء الجدد للمجتمع الإسلامي جهاد في سبيل الله" فحسب بل انه ضاغط لذلك الثواب، فالدين الإسلامي دين البشرية جماء ومجتمعه أتاح الانتماء إليه لكل إنسان ودعوته عملية ديناميكية دائمة الحركة من طبعيتها إلا تتوقف في أية ناحية بل تسير في كل اتجاه حتى تغطي سطح الكره الأرضية بمجتمع إسلامي بحث، وهذه العقيدة

—(257)—

ليست بال بعيدة أو عسيرة التحقيق لو ان كل فرد أو جماعة من المسلمين تشبعوا بالمبادئ الإسلامية وعملوا بمقتضى تعاليم هذا الدين وبدلوا الجهود الكافية للدعوة له واستدعوا لهذه الدعوة ووفروا لنجاحها الامكانيات.

ان الإسلام جاء لضرورة عالمية ملحة وقد حقق هذه الضرورة، فقد تكفل بهداية الإنسانية جماء، وأرضى ضمير الإنسان وروحه، ولبي مطلبه في العقيدة والإيمان، ورسم الطريق لبناء مجتمع عالمي يقوم على أسس من العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، وعالج ما كانت قد تردد فيه الإنسانية قبله من أخطاء وقضى على ما كانت تتخطى فيه من شرور.

دلالة معنى العالمية

وبعد ان اتضحت لنا أبعاد العالمية نقول: الإسلام منذ تفجرت بنا بيع دعوته في الجزيرة العربية وهو

دين التوحيد والتنزية، غير ان في الإسلام خصائص موضوعية وأصولاً أخرى تضاف إلى عقيدة التوحيد والتنزية. الإسلام في عالميته الإنسانية أو إنسانيته العالمية كان شيئاً معجزاً لم تعرفه الأديان والآداب - من قبل -.

كان أول ما في الإسلام حين دعا إلى التوحيد أن دعوة التوحيد في الإسلام لم تكن مسائل غيبية ومتاهات ميتافيزيقية وإنما قامت دعوة التوحيد على توحيد الإنسانية كلها في حقوق واحدة، وتوحيدها في هداية واحدة وتوحيدها في إيمان بالله واحد لا اله إلا هو ولا رب لكل البشر سواء يتساوى الناس جميعاً بين يديه ولا يتمايزون إلا بمقدار ما يقدمون للإنسانية من خير وسلام، ولا يتحقق

(258)

التمايز بغير الفضل والصلاح والعدل والمساواة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذْنَا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِيلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ رَبَّكُمْ عَنِّيْدُ اللَّهُمَّ أَرْقَنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَمَّ عَلَيْكُمْ خَبَرِي﴾(1).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّتُعَلَّمَ مِنْهُ﴾(2). ومن خصائص هذا الدين أن مجتمعه أنصدق مع جوهر ما يؤمن به يصبح هذا المجتمع متفتحاً بشكل يتحرك فيه على أساس من معنى العالمية، حتى ولم تكن قد تحقق له بعد تلك العالمية بالفعل لأنّ مجتمع الإسلام هو مجتمع إنسانية كلها لا فرق لديه بين جنس وجنس ولا بين لون ولون ولا بين لغة ولغة ولا حتى بين دين ودين.

مجتمع ليس لجفراً فيته حدود، وليس للعنصرية فيه وجود.

فالإسلام يواجه مجتمعه في أول لقاء ينفي كل تلك النعرات ﴿وَاللَّهُمَّ لَا يَهْدِي الْفَاسِقِينَ﴾(3).

فباستطاعة كل إنسان أن يعيش في حمى الإسلام، وفي ضمن مجتمعه ن دون أن يحس بغرابة، بل انه - على العكس من ذلك - ليحس آصرة واحدة تربط بينه وبيني ذلك المجتمع، وهذا الموقف من الإسلام يحقق السلام العالمي للإنسان لأنه يقضي على أهم أسباب الحروب، ويقف في وجه التكالب الاستعماري الذي يقوم على الشعور القومي أو العنصري.

نم والإسلام في حركته لا يحبد فكرة الوطنية الإقليمية في مجتمعه، ولكنه يبقى على المعنى الطيب من تلك الفكرة، وهو معنى التجمع والتآخي والتعاون والنظام والهدف الذي تلتقي من أجله الجماعة من الناس.

1 - سورة الحجرات: الآية 13.

2 - سورة الأنبياء: الآية 107.

3 - سورة المائدة: الآية 108.

-(259)-

فإلا إسلام بدعوته تلك يحرر فكرة الوطنية من مادية الأرض يجعلها فكرة شعورية - لا رقعة أرضية فحسب - يجتمع في طلها الناس على اختلاف ووائدهم وأجناسهم وموالدهم، فإذا هم جمِيعاً أبناء وطن واحد.

ومنطلق تلك الفكرة في الإسلام في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، (1) وبذلك يقضي على نزعة الاستغلال العنصري بكل ما ينشأ عنه هو شعور المسلم بأن كل أرض يطللها الإسلام هي وطنه وأن كل مسلم يعيش على الأرض هو مواطن له.

وبناء على ذلك أيضاً فإنه لا مجال لدى المجتمع الإسلامي لظهور تلك العصبيات لأنها لا يعتمد في ترابطه على وشيعة الجنس، أو عنصر الدم فالجنس الإنساني واحد، والدم البشري لا يختلف الاختلاف الذي يؤثر في تكوين المجتمع أو في التلاقي والتعاون. والإسلام في ذلك يحرص على أن يشد المجتمع بسبب قوي متين لا يخشى عليه التمزق السريع إذ ليس أسرع من تمزق رابطة تقوم على الجنس والدم.

أما العقدية فهي حيل لا توهيه الأحداث ومهما تكتلت قوى العدوان من الخارج فهي داخل هذا المجتمع المؤمن ما يتحمل عنه الضربات ويدفعها عنه حتى يضمن له السلامة.

ولأنه - الإسلام - لا يمكن من الظلم انسانه - فحسب - بل من معارك لأنه لم تكن هناك معركة واحدة يرجع سببها إلى عصبية أو إكراه أو عدوان، بل كانت لك معارك المسلمين دفعوا لظلم أو رداً لعدوان ليس غير.

ومن ثم تتأكد العالمية في مجتمع الإسلام، فهو لا يقصر القتال على تحقيق مصالح خاصة لأفراده موزعين أو مجتمعين ولكنه يجعل نصرة المظلوم وتخلصه من ظلم طالمه سبباً يدعو للقتال، مع حبه للمسلم ورغبتة فيه – أيا كان هذا المظلوم، وأيا كان هذا الطالم –، وان عالمية الإسلام – تلك القيمة التي تنبثق عن عقيدته – توجب على مجتمع الإسلام إلاّ يقطع الصلة بينه وبين الذين لا يدينون بالإسلام ماداموا لا يحاربونه ولا يمنعون دعوته ان تبلغ الناس، ولا يفسدون في الأرض ولا يعتدون على ضعيف. يدفعه عن الناس جميماً، ويمنع الناس جميماً ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلذِّلَّةِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَا وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا وَآمَنَ أَهْلُ الْكِتَابَ لَكَمَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(1).

كل ما يريده – الإسلام – ان تترك له حرية الدعوة بين أهل الأرض جميماً حتى يصلهم بالخير المطلق الذي جاء به وألاّ يقهرون إتباعه على ترك عقيدتهم وان تناح له القوة الازمة لحمايتهم من العداون عليهم والازمة لتنفيذ شريعته بينهم.

لم يكن القتال وسيلة من وسائل نشر الإسلام، لأن ذلك يحقق العصبية بمعناها الشرير الحقير، فليس الأمر كما يحلو لداعاة السوء أن يشيعوا عن الإسلام مستغلين ما صادف والصلة بين مجتمع الإسلام وبين هؤلاء يحددها وضعهم أنفسهم، فإن كانوا خارجين عن سلطان الإسلام – ممن لهم دين آخر أو ممن ليس لهم دين – فمجتمع الإسلام لا يحاربهم ولا يقاطعهم ماداموا لا يحاربونه ولا يقاطعونه ولا يعادونه ولا يعتدون على مستضعف من غير المسلمين.

ونظامه – على أساس تلك القيمة من قيمه – لا يقف عند تلك السلبية – يعاديه ويسالم من سالمه – بل انه ليسمح بالتعاون الإيجابي معهم عن طريق المعاهدات التي يحترمها الإسلام كل الاحترام **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدَّيْنِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدَّيْنِ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**.

والإسلام إذ يعلن عن ذلك المبدأ لا يغفل ما يمكن ان ينال المسلمين من أعدائهم فيحدد موقفهم من ذلك في صراحة ووضوح لاموادية فيه ولاغش.

والعهود في الإسلام تلتزم العالمية وتسعى لتحقيقها، فهي ليست عوداً «ميكا فيلية» تقوم على العد وتعتمد على الخديعة، بغية ان تكون أمة هي أربى من أمة ولكنها عهود تقوم على الالتزام والوفاء وتعتمد على الصراحة.

الإسلام مبادئ عالمية

مبادئ العالمية في الإسلام جلية، فمنذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة إلى الإسلام أصر على انه لا يأتي بشيء من عنده وإنما يبلغ رسالة الله إلى أهل الأرض، وأيضاً فانه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن مجرد مبعوث يردد رسالته السماء لمحض التبليغ وإنما كان بإرادة الله معصوماً وبأمره مرداً وهادياً، فكان يعيش حياته ويعمل طبق هداية الله ومن ثم كانت أعماله كلها وأقواله كلها إيصالاً لآيات الله وتفسيراً لمجمل القرآن وبياناً لكيفية تطبيق نصوصه على أعمال الناس وسائر شؤون حياتهم **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ**

–(262)–

أَلَاخْرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(1). **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُمْ فَإِنَّمَا أَتَهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**(2).

لَقَدْ مَنَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مَّنْ أَنْفُسُهُمْ يَتَوَلُّونَ وَعَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَذِّبُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفْلِي ضَلَالٍ مُّبَيِّنٍ (3).

فالإسلام وهو نهاية الأديان وخاتمتها ليس وقف على عصر وليس خاصاً بجيل، وإنما هو دين كل عصر وكل كل جيل ومن شأن هذا الدين أن يكون ذا طبيعة تقدمية تتسع لكل تطور وكل تقدم وتناسب كل تجدد وكل تبدل في الحياة الإنسانية عبر العصور والأجيال، فإذا وقفت القواعد والأصول الكلية التي وضحتها وأبانها القرآن حائلا دون تحرك الإنسانية نحو التدهور أو التخلف كان هذا ضماناً أكيداً لكي يكون سير الإنسانية دائماً إلى الرقي وإلى الأمام.

ومما امتازت به أيضاً شريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم أنها جاءت موافقة ومتmeshية مع الطبيعة البشرية وقصورها فتدرجت مع مقتضيات أحوال الناس وظروف البشر.

وفي قواعد الدين كلها أتجه الإسلام منذ البداية اتجاهها عالمياً فلم تقتصر الدعوة على قوم دون قوم أو جنس من البشر دون جنس آخر وإنما هي دعوة للإنسانية كلها ولسائر أجناس البشر لا فرق في ذلك بين أبيضهم أو أسودهم بين غنيهم أو فقيرهم وبين رئيسيهم ومرؤسهم، وإذا كان هناك تفاضل بين الناس والإنسان فإنما ذلك يعود فقط إلى قوة الإيمان والتمسك بالشريعة لا إلى سبب

1 – سورة الأحزاب: الآية 21.

2 – سورة الحشر: الآية 7.

3 – سورة آل عمران: الآية 164.

–(263)–

آخر.

قال تعالى: ﴿لَّا يُؤْمِنَ بِأَمَانَتِي﴾ كُمٌ وَلَا أَمَانَتِي أَهْلُ الْكِتَابَ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا
يُجْزِي بِهِ وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيَّا وَلَا زَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلُ مِنْ
الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا
يُظْلَمُونَ زَصِيرًا﴾ (1).

الإسلام عقيدة عالمية

العقيدة في الإسلام عالمية تشمل الإنسانية كلها، ورسالة تدعوا - أول ما تدعوا - إلى التعريف بما وتنبيء عنه باسمه، وتقيم الدليل بينما مقنعاً على وجوده. ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُمَّ
الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (2).

﴿إِنَّمَا يَسْهُلُ النَّاسُ أَعْبُدُوهُا رَبَّكُمُ الْإِذْنِي خَلَقَكُمْ وَالْإِذْنِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ إِذْنِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَرِزَانَهُ وَأَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِتَّهُ
أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (3) وَقُلْ أَغَيْرُ اللَّهِ أَنْتَ خَذُ وَلِيَّا فَاطِرَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعِمُ قُلْ إِنَّمِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ
أَوْلَى مَنْ أَسْتَمَّ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (4).

وعلى الجملة فـ ﴿كما يتجلّى من خلال الإسلام ذات أزلية سرمدية متصفّة بكل كمال ومنزّهة عن كل نقص هو صانع العالم وخالق الكون، لم يلد ولم يولد،

1 - سورة النساء: الآية: 123 - 124.

2 - سورة الإخلاص: الآية 1 - 4.

3 - سورة البقرة: الآية 21 - 22.

4 - سورة الأنعام: الآية 14.

واحد لا شريك له ولا مثيل.

والإسلام حين يعترف بما سبقه من الرسالات فإنه يطلب الإيمان بأن محمدا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، وبأن رسالته تضمنت خلاصة الرسالات السابقة وزادت عليها ما به كمال الإنسانية التي أتاح الله لها هذه المرة – وبشكل نهاي – الطريق الواسع نحو التطور الصحيح ونحو الرقي المادي والروحي. **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُمَّ بِرَكُلٍ شَيْءٍ عَلَيْهِمَا** (1). **إِلَّا يَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَرْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** (2).

ولهذا كانت هذه الرسالة الإلهية النهاية رسالة عامة موجهة إلى جميع الناس مهما اختلفت السنتهم والوانهم وأجناسهم في كل زمان وفي كل مكان ابتداء من وقت البعثة النبوية حتى يوم القيمة: **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا يُكُمْ جَمِيعًا إِلَّا ذَي لَه مُتَكُّلُ السَّمَاءُونَ وَالْأَرْضُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمْبَيِتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** (3).

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافِةً لِّلْنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (4).

ولقد أعتنى الإسلام – في محيط الإنسانية – بوحدتها وفي الفرد باعتبار ان صلاح الفرد أساس ضروري لتكوين المجتمع الصالح.

فعمل على بناء شخصيته وقوتها، ورسم لها طريق التصرف في حرية وعزه وكراهة، لا، هذا الفرد كوحدة يمثل نواة لكل مجتمع إنساني ابتداء من الأسرة إلى الأمة إلى المجتمع الإنساني بأسره.

1 - سورة الأحزاب: الآية 40.

2 - سورة المائدة: الآية 3.

3 - سورة الأعراف: الآية 158.

4 - سورة سباء: الآية 28 - الإسلام ضرورة عالمية، راهر عزب الزغبي، الهيئة المصرية العامة، 1971 م، ص 134 و 145.

-(265)-

وتقويم شخصية الفرد وتربيتها على العزة والكرامة والحرية أمر جوهرى للنهوض بالبشرية كلها ، والقرآن مليء بآيات التي تنبئ عن تكريم الله للإنسان وإعزازه له. ﴿وَلَقَدْ كَرِمْنَا بَذْرَى آدَمَ وَحَمَلْنَا هُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَا هُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَا هُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمْنَنْ خَلَقْنَا تَفْصِيلًا﴾(1).

والإسلام قدر عنايته بالفرد الإنساني اعتنى أيضاً بالجماعة الإنسانية فارتبط الإنسان بجماعته يهيء للحيوانات الفردية وضعاً اجتماعياً هو نوع من الأخوة يشعر بها الفرد بتزايد في القوة والأمن، ويخلق عنده مجالاً للوعي الجماعي المشترك، وهذه الأخوة وهذا الوعي ينتج عنهما نوع من الترابط الإنساني يتجاوز حدود الوطن المحدد أو الجنس المحدود.

ومن هنا كانت الأمة أو الجماعة التي يريد لها الإسلام ذات طابع متحرك ومن شأن حركتها أن تكون مثابة لا تكل نحو خلق مجتمع عالمي أو حركة نامية لا يقف لها نمو قبل أن تشمل العالم جميعه فينظم فيها سكانه بأجمعهم ينظم شؤون حياتهم قانون دائم الصلاحية، قانون لا يعرف حدوداً في الزمان أو المكان، قانون دولي عام.

لابد للمجتمعات البشرية من ضوابط تنظم العلاقات التي تربط على الأقل بين أفرادها، ومهما كانت هذه المجتمعات فلابد من هذه الضوابط وإلا فسدت

1 - سورة الإسراء: الآية 70.

-(266)-

أحوال المجتمع وآلته حاله إلى انحلال وزوال.

ومن ثم يمكن القول ان القانون بوجه عام في آية أمة من الأمم ليس إلا "صورة صحيحة لحياةها الاجتماعية والاقتصادية، والهدف منه إقامة العدل وحفظ حقوق الفرد والجماعة بقواعد قانونية ملزمة، وهذه القواعد تكون وقنية و محلية إذا كانت قد سنت لتعمل في مجال له أوضاعه الخاصة ذات الطابع العرفي الإقليمي.

ولكنها تكون صالحة للخلود والتعامل بها على نطاق دولي إذا كانت تعبر عن مفاهيم وحقائق ثابتة مسلم بها على نطاق إنساني عام، أو اشتملت على قواعد وظائف كبرى هي: العلاج، والوقاية، والتوجيه.

وحتى يتمكن القانون من أن يؤدي وظيفته يجب أن يكون ملزماً.

والقانون أما أوامر أو نواهي، ولكي تتوفر للقانون الطاعة والالتزام في العمل يحتاج إلى نوع أضفي من الأحكام التشريعية يسمى بالمؤيدات وهذه اما زواجر مدنية وأما عقوبات تأدبية.

ومن ثم يمكن تقسيم أحكام التشريع إلى نوعين:

1 - أحكام محمية وهي القانون الأصلي.

والإسلام قد كفل صلاح البشر أفراداً وجماعات بالتربيّة والتنظيم. وقد اعنى الإسلام أول ما اعنى بمخاطبة عقل الإنسان وضميره ووجدانه فأتاح

١ - الإسلام والحياة المعاصرة، فرانكلين بالقاهرة، مجموعة أبحاث.

- (267) -

للضمير ان يعتبر المثل الأخلاقية حين يتعامل في نطاق الشريعة.

والشريعة الإسلامية اسم للنظم واللوائح التي شرعها الله أو شرع أصولها، وكلف المسلمين إياها ليأخذوا أنفسهم بها في علاقتهم بالله وعلاقتهم بالناس.

والإسلام في معالجته الإصلاحية للإنسان قد استهدف ثلاثة أهداف أساسية كل منها نتيجة لما قبله وأساس لما بعده.

أولاً: تحرير العقل البشري من رق التقليد والخرافات، وذلك عن طريق العقيدة والإيمان بما، وتوجيه العقل نحو معنى الألوهية بالدليل والبرهان والتفكير العملي الحر.

ثانياً: تربية ضمير الفرد وإصلاح نفسيته، وذلك عن طريق تعريفه بالمثل الأخلاقية وإشاعر نفسه منها، وتوجيهها نحو الخير والإحسان وكل ما هو واجب أو أصلح.

ثالث: تحقيق العدالة والأمن والحربيات في مجتمع صالح.

والإسلام لم يغفل أبداً عن العالمية في المجتمع الذي خطط مشروع تكوينه.

فالحج فضلا عن انه عبادة وطاعة يستلهم فيها المؤمن جلال الله وعظمته في مواطن الوحي ومنبع الرسالة،

فهو أيضاً مؤتمر عالمي يلتقي فيه المسلمون على صعيد واحد من شتى إنجاء الأرض فيندارسون ويتشارون فتمتاز المعارض وتتوالد التجارب وتتوطد العلاقات وتتدعم الاخوة في الله تحت راية الإسلام وفي كنف الأمان والاطمئنان.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الشريعة الإسلامية في مجال ضبط الأحوال الشخصية قد كفلت للإنسانية عدالة لم تتوفر لها من قبل.

ونستطيع هنا أن نقرر جازمين انه حتى في عصر النهضة والمدنية كانت

(268)

محاولات الإنسان في الدول المتحضرة غير الإسلامية لإنصاف نفسه بوضع التشريعات التي حسبها توفر له أقصى قدر من العدالة والمصلحة، كانت هذه المحاولات شيئاً حقيراً لا يمكن أن ينافس الشريعة الإسلامية في دقتها وقدرتها على تحقيق العدالة المطلقة.

ان الشريعة الإسلامية ليست إلا شريعة متقدمة متقدمة تنبذ الجمود ولا تقبله، وإنها شريعة تتسع لكل ما يمكن ان يعرض للإنسانية من أمور ومشاكل واحتياجات أو بعبارة دقيقة صريحة حاسمة (شريعة إنسانية عالمية عامة تصلح لكل زمان ولكل مكان).

و الله ولي التوفيق